الاسلوب الاسلامي في خوض الحروب

د. انيس مصطفى القاسم*

■ ليس هذا العنوان من عندي، وانما هو العنوان الرئيسي لمقال لاستاذ جامعي امريكي، هو اندرو ج. باشيفيك، استاذ التاريخ والعلاقات الدولية بجامعة بوستن، وتحته عنوان توضيحي نصه «لقد توقف المسلمون عن خوض الحروب وفقا للاساليب الغربية ـ وبدأوا في الانتصار».

ونشر المقال في عدد 11 ايلول (سبتمبر) 2006 من مجلة المحافظ الامريكي The AmericanConservative. ومع انني لا ادعي اطلاقا بانني خبير في الشؤون العسكرية، الا ان هذا المقال استوقفني لما فيه من منطق وبساطة في العرض بحيث يستطيع الانسان العادي ان يدرك ما فيه من سلامة في التحليل، خاصة ونحن ما زلنا نعيش الوقائع والنتائج التي تحدث عنها.

ينطلق المقال من الوضع في العراق وغزة وجنوب لبنان. يقول الكاتب «في العراق، تجد القوة العظمى الوحيدة في العالم نفسَها غارقة في صراع لن تنتصر فيه(1). اقوى قوة عسكرية عرفها التاريخ لم تتمكن من هزيمة قوة معادية من المتمردين قد يتراوح عددهم ما بين 20 و30 الفا، وهم مسلحون فقط ببنادق هجومية من منتجات ما بعد الحرب العالمية الثانية واسلحة مضادة للدبابات. وفي غزة وجنوب لبنان، تجد اقوى قوة عسكرية في الشرق الاوسط نفسها مشتبكة في قتال مع خصوم لا تستطيع قهرهم. فبالرغم من اسابيع من قتال ضارٍ، فان جيش الدفاع الاسرائيلي بدبابات الميركافا والمقاتلات القاذفات فـ16 ومنصات اطلاق المركبات الجوية التي لا تحمل بشراً، لم يستطع ان يُخْضِعَ المقاومةَ المسلحةَ لحماس وحزب الله، ناهيك عن القضاء عليها.

ويتساءل الكاتب «ما الذي نستنتجه من هذا؟ كيف استطاع اولئك الذين بدوا ضعفاء وبدائيين في الظاهر ان يُحبطوا جيوشا عصرية كان يُنظَرُ اليها حتى وقت قريب بانها لا تُقْهَرُ»؟

«الجواب في غاية البساطة» يقول المقال. «لقد بدأت الشمس تغرب عن عصر السيطرة العسكرية الغربية التي لم تكن ابدا محل تساؤل. لقد اعتمد الغرب لعدة قرون على قوته العسكرية لفرض سيطرته السياسية في كل مكان، من آسيا الى افريقيا الى العالم الجديد. فلم تكن الفضيلة هي التي اوجدت امبراطوريات بريطانيا وفرنسا واسبانيا وغيرها من الاستعماريين الاوروبيين، وانما كانت نيران الاسلحة والتكنولوجيا والانضباط. وفي خلال معظم القرن الماضي لم يكن هذا التفوق العسكري الغربي اكثر وضوحا مما كان عليه في الشرق الاوسط، اذ استطاعت القوة العسكرية البريطانية والفرنسية ان تهزم الخلافة العثمانية وتتقاسم المنطقة حسب مصالحها، وتسيطر بقوة السلاح الاوروبي حتى عام 1945 على العرب في مصر والعراق وسورية وفلسطين».

وبدأ العرب يقلدون الغرب بتبني الاساليب الغربية في القتال فانفق القادة العرب اموالا طائلة في شراء اساطيل الدبابات والمدافع والاسلحة الثقيلة واحدث الطائرات المقاتلة، ومع ذلك كانت اسرائيل تهزمهم دائما، تماما كما قضت القوات الامريكية على الجيش العراقي النظامي خلال فترة قصيرة وبسرعة فائقة. ومن هذا يستنتج الكاتب «الحقيقة هي ان القوات الامريكية والاسرائيلية تبدو مؤثرة في محاربتها للعرب فقط ما دام القادة العرب السياسيون يصرون على خوض الحرب وفقا للاسلوب الغربي. وهم لن ينتصروا ما داموا يضعون دبابة امام دبابة وطائرة مقاتلة امام طائرة مقاتلة».

وهذا في نظرنا استنتاج في غاية السلامة، لسبب في غاية البساطة لم يُشِر اليه الكاتب، وهو ان العرب، في محاكاتهم للاسلوب الغربيِ في القتال، اي اسلوب الجيوش النظامية، انما يعتمدون اعتمادا كليا على الغرب في تسليح انفسهم وفي قطع غيار اسلحتهم وفي ذخيرتهم بل وصيانة معداتهم العسكرية وطائراتهم. وليس ادل على ذلك من صفقات شراء الاسلحة التي ابرمتها السعودية في يوليو واغسطس الماضيين مع بريطانيا وفرنسا وامريكا، حيث بلغت قيمة الصفقة مع بريطانيا وحدها عشرة مليارات جنيه استرليني ثمنا للطائرات وعشرة مليارات اخرى لصيانتها. ووفقا لمنطق الاستاذ الامريكي فان عملية الشراء هذه لا جدوى من ورائها، وان الانظمة العربية ما زالت لم تستوعب دروس المواجهات السابقة بينها وبين اسرائيل او بينها وبين الغرب، وان ما تقوم به في هذا السبيل لا يجدي في تعديل ميزان القوى لصالح العرب، او في ردع من يقرر السيطرة على الوطن العربي او اي قطر من اقطاره، او الاستمرار في فرض سيطرته هذه، كما هو الحال مع اسرائيل التي تعرف مسبقا انها قادرة في نهاية المطاف على الانتصار على اي جيش نظامي عربي يتصدى لمطامعها، معتمدة في ذلك على نفسها وعلى المدد المؤكد الذي سيأتيها من امريكا خاصة والغرب عامة، ما دامت المواجهة تتم بالطرق التقليدية.

ويمضي الكاتب في تحليله. فيشير الى التغير الذي حدث استنتاجا من ان السير في الاسلوب القديم وبالطريقة ذاتها لن يحققا سوى الهزائم المتلاحقة. وهذا التغيير الذي حصل هو اتباع اسلوب جديد، هو اسلوب ما اطلق العرب عليه اسم «المقاومة». هذا الاسلوب الاسلامي الجديد، كما يسميه، لخوض الحرب، قد تطور عبر عقود من الزمن ليس فقط في العالم العربي وانما ايضا في اقطار اخرى. ففي افغانستان وخلال الثمانينات من القرن الماضي ابتدأ المجاهدون هذه المسيرة باركاع جيش سوفييتي مسلح بترسانة من المعدات الحديثة. وفي اثناء الانتفاضة الاولى التي بدأت عام 1987 استطاع فلسطينيو الحجارة وقذائف المولوتوف ان يرهقوا جيش الدفاع الاسرائيلي. وفي 1993 ارغم «رعاع» صومالي غاضب، كما يسميهم، وليس جيشا على الاطلاق، الولايات المتحدة على جمع حقائبها والرحيل. وفي عام 2000 بدأت انتفاضة ثانية اقنعت حكومة اريل شارون بان الاحتلال الاسرائيلي لقطاع غزة والضفة الغربية لا يمكن له الاستمرار. اما الحدث الاكبر، كما يقول الكاتب، فقد كان الهجوم الذي شنته القاعدة بنجاح في 11 ايلول (سبتمبر) 2001على البر الامريكي نفسه. وغاب عن الكاتب ان يشير الى ان هذا الاسلوب هو الذي حقق طرد المستعمر من جميع اقطار الوطن العربي وادى الى انهاء الاستعمار في اقطار عديدة قبل ان يُهْزَمَ الجيشُ السوفييتي في افغانستان وقبل احداث الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) عام 2001.

ويمضي الاستاذ الامريكي في تحليله ليقول انه بدا لفترة قصيرة بعد ذلك وكان الغرب قد استطاع قلب الموازين مرة اخرى لصالحه في كل من افغانستان والعراق باستعمال الاسلوب الغربي في الحرب، ولكن سرعان ما تراجع هذا الانتصار وتجدد القتال باتباع الاسلوب الجديد في المواجهة وهو اسلوب المقاومة، فتبدد الانتصار وبانت بوادر الهزيمة في كل من افغانستان والعراق. وفي جنوب لبنان غرق التدخل الاسرائيلي في الوحل، هذا التدخل الذي بدأ بقَسَمٍ من رئيس وزراء اسرائيل بانه سيحطم حزب الله، وستكون النتيجة، في الاغلب، هزيمة لهذا التدخل. وطبعا هذا ما حصل. «واذن فان العرب ـ والمسلمين بوجه عام ـ قادرون على القتال»، ويمكننا ان نستنتج، كما يقول الكاتب، انهم قد ادركوا الآن ان القتال الفعال يتطلب منهم ان يقوموا به بطريقتهم هم، وليس بتقليد الاساليب الغربية. ومع ان هذا الاسلوب الجديد لا يستطيع، في رأي الكاتب، ان يحتل الولايات المتحدة او اسرائيل، لان لديهما قوة دفاعية تستطيع الوقوف امامه، الا انه قادر على حرمانهما من الانتصار، وبالتالي حرمانهما من امكانية فرض ما يريدان على العرب او المسلمين. ويخلص من هذا للقول بأن على امريكا واسرائيل ان تعيدا النظر في الفرضية التي سادت حتى الآن، وهي ان القوة العسكرية قادرة على فرض الهيمنة، او حل المشاكل. وينتهي الكاتب بتقديم النصح للحكومة الامريكية واسرائيل. ونصيحته هي المحافظة على القوة واليقظة، ولكن الى جانب ذلك لابد من العمل للتخلص من عقدة الغرام بالحروب واعادة اكتشاف امكانيات العمل السياسي.

والذي يستوقفنا في هذا المقال هو ان هذا الكاتب الامريكي قد ادرك التحول الذي حصل في اساليب المواجهة ونتائجها، وان العرب قد بدأوا يدركون ان اسلوب المقاومة هذا يحقق لهم نتيجة مهمة جدا، وهي حرمان العدو من تحقيق الانتصار، وتفويتُ هذه الفرصة معناه ان محاولات الاحتلال او فرض الهيمنة لن يكون مصيرها سوى الهزيمة اذا اتبع اسلوب المقاومة، في حين ان الاساليب الاخرى، الاساليب التقليدية التي تعتمد على الجيوش النظامية فقط فانها ستكون دائما عاجزة في النهاية عن تحقيق هذه الهزيمة. والمنطق يقول بهذا، ما دمنا عاجزين عن مجاراة الصناعة العسكرية الغربية وما دمنا نعتمد عليها اعتمادا كليا في كل شيء، بما في ذلك الامدادات التي قد تحتاج لها الجيوش عند نفاد ما لديها منها وهي في خضم المعركة، في حين ان الخصم يمتلك الصناعة العسكرية المتفوقة ويستطيع الحصول على كل ما قد يحتاج اليه من الامدادات وتعويض خسائره في المعدات بشكل متواصل. وقد شاهدنا ذلك في هذه الحرب الاخيرة حين اقامت امريكا جسرا جويا عن طريق بريطانيا لتزويد اسرائيل بالعتاد والقنابل وغيرها من الامدادات بعد ان نفد ما لديها، وحصل الامر نفسه في حرب 1973 مما ادى الى تغيير مجرى المعركة.

وازاء هذا التحليل المنطقي السليم للتطورات، نستطيع ان نفهم ظاهرة هذا الاصرار الغربي والاسرائيلي على تجريد المقاومة الفلسطينية واللبنانية من السلاح، على بساطته، وتدمير بنيتها التحتية، واعادة الوضع الى ما كان عليه من الاعتماد على الجيوش وقوات الامن النظامية التي تستطيع اسرائيل وامريكا هزيمتها، حيث ان هذه العودة تعني استمرار مسلسل الهزائم باستمرار التبعية العربية للغرب في التسلح وفي امكانيات المواجهة، وتجريد الشعب العربي من امكانياته الذاتية في الدفاع عن نفسه وعن وطنه بقوة وفعالية.

هذه مناورات هدفها ابقاؤنا في حالة ضعف مستديمة، ويجب علينا ليس التصدي لها فقط وانما احتضان المقاومة شعبيا ورسميا. والمسألة لا تتعلق بحزب الله او باي تنظيم من تنظيمات المقاومة الفلسطينية بهذه الصفة، وانما تتعلق بما هو اهم من ذلك بكثير، وهو اننا استطعنا، بعد معاناة طويلة من العجز امام الغطرسة العسكرية الغربية والاسرائيلية، ان نجد وسيلة فعالة لتحديها والصمود في وجهها والانتصار عليها. فكيف يجوز القضاء على هذا المكسب التاريخي؟ المنطق والمصلحة القومية والوطنية يقولان بانه يجب المحافظة على هذه الظاهرة وتطويرها بحيث تصبح مدرسة عسكرية ثابتة الاقدام تعم الوطن العربي كله، وتكون هي من بين الدروع الواقية التي نبتكرها نحن ضد اي عدوان تتعرض له الارض العربية. اننا لا نشكك اطلاقا في وطنية ابنائنا في القوات المسلحة النظامية وغيرتهم وشجاعتهم. فالهزائم التي حلت بنا لم تكن من صنعهم، وانما كانت من صنع سياسات خاطئة لم تستوعب دروس التاريخ، فاخذت باسلوب التقليد بدلا من الابتكار.

طبعا من مصلحة امريكا واسرائيل دفن هذا الاسلوب من اساليب المواجهة والقضاء عليه، ولهذا جاء قرار مجلس الامن رقم 1559، ولهذا تم تصنيف حزب الله وحركات المقاومة الفلسطينية على انها منظمات ارهابية. من مصلحة اسرائيل وامريكا ان تظل المواجهة بالطريقة التقليدية، لان نتيجتها محسومة مسبقا لصالحهما، في حين ثبت ان نتائج المقاومة محسومة لصالح المقاوم. ومن مصلحة الغرب كذلك اقناع الانظمة العربية بالاستمرار في اتباع الاساليب التقليدية في القتال لان ذلك يعني عقودا مجزية تُنْشَطُ صناعة السلاح في الغرب وتطورها باموال عربية. فقد ذكر المعلقون الاجانب على صفقة الطائرات السعودية الاخيرة بانها حققت للدول الاوروبية المنتجة للطائرة ثلاثة اهداف: اولها ان الدول المصنعة للطائرة كانت قد بدأت في تخفيض الاموال المخصصة للمشروع بسبب الحاجة الى توجيه المزيد من الاموال لاغراض اخرى، وثانيها ان الشركة الصانعة كانت ستفصل آلاف العمال بسبب قلة الطلب على الطائرة فحلت الصفقة المشكلة وضمنت فرص عمل لسنوات عديدة قادمة، وثالثها ان الصفقة اعادت للغرب الدولارات التي دفعها لشراء النفط العربي. واذن يجب الا نعجب من هذا الضغط المتواصل لتجريد حزب الله والمقاومة الفلسطينية من السلاح، لان هذا التطور في اسلوب المقاومة يعني الاستغناء عن الكثير من صفقات مغرية تعود بالنفع الحقيقي على الغرب دون ان يشعر باي تهديد له من هذه الاسلحة، بل انه يستطيع تدميرها في اية مواجهة بحيث تبدأ الطلبات من جديد.

البديل، وهو اسلوب المقاومة، في ايدينا، ونحن الذين نتحكم فيه ونستطيع تطويره وتطويره بعقولنا وحرصنا على وطننا ومستقبل اجيالنا. صحيح ان العدو يستطيع ان يتسبب في الكثير من الدمار بما لديه من سلاح، ولكن اثبت حزب الله ان المقاومة قادرة هي الاخرى على انزال الدمار باختيار سلاح مناسب لا يستطيع العدو ابطال مفعوله، فصواريخ الكاتيوشا، التي هي من مخلفات الماضي، اثبتت فعالية فائقة في الرد على العدوان الاسرائيلي وانزال الدمار به، وبفرض الفرار الى الملاجئ على مليوني اسرائيلي، اي نصف سكان اسرائيل تقريبا، كما ان القوات النظامية تستطيع ان تتدخل بعد ان تكون المقاومة قد انهكت العدو في عمليات استنزاف متلاحقة.

لقد بدأ الباحثون الاسرائيليون، كما كشفت الصحافة الاسرائيلية وكما هو المتوقع، يدرسون هذا الاسلوب من اساليب المواجهة لمحاولة تطوير العمل العسكري الاسرائيلي للتعامل مع هذا التطور الخطير، ولا شك في ان الكليات العسكرية في الغرب قد بدأت هي الاخرى في اجراء دراساتها، لانها لن تقبل الهزيمة بسهولة. وهذا يفرض علينا جميعا الحرص على المقاومة، والتصدي لمن يريد الانقضاض عليها مهما كانت ادعاءاته، فالاخطار ما زالت محدقة بالوطن، وليس من السهل استنبات المقاومة بعد التخلص منها. فحزب الله امضى سنوات عديدة في الاعداد والاستعداد، ولهذا استطاع ان ينجز هذا الانجاز التاريخي.

وكما قلت في مستهل هذا المقال، انني لست خبيرا عسكريا، ويقع على المخلصين من ابناء هذه الامة، من عسكريين ومقاومين ومدنيين، ان يجدوا السبيل المناسب للحفاظ على المقاومة كعنصر ثابت ودائم وفعال من عناصر المواجهة. وهذا لا يعني، بالضرورة، الاستغناء عن الجيوش النظامية، فهذه لا شك لها دورها. المهم هو عدم التفريط بما ثبتت جدواه لاي سبب من الاسباب، ليس هذا فحسب وانما القيام بالعمل الجاد لتكوين رصيد دائم من المقاومين المدربين يكونون دائما على استعداد لتلبية نداء الوطن كلما حاول احد الاعتداء عليه. والى ان يتم ذلك يجب الحفاظ على المقاومة الحالية بسلاحها ونظامها ورجالها وتقديم الدعم لها، فبهذا وحده نستطيع الاطمئنان الى اننا سنكون قادرين على قهر العدوان وحماية اوطاننا في ضوء اختلال ميزان القوى بالطرق التقليدية الذي يبدو اننا سنظل نعيشها لفترة طويلة من الزمن. يجب ان نكون دائما مستعدين ويقظين والا نركن الا الى قوتنا نحن وامكانياتنا نحن، فاعداؤنا مستعدون دائما، ووطننا كان على مر التاريخ هدفا للغزاة، ولم تظهر امبراطورية الا وحاولت ان تكون هذه الدرة الفريدة في تاجها. ومسؤوليتنا الحفاظ عليها لانفسنا ولابنائنا وللاجيال القادمة بعد ان اكتشفنا الطريق لحمايتها.

(1) وجاء في الاخبار (17 ايلول/سبتمبر 2006) ان المخابرات العسكرية الامريكية اخبرت قيادتها بانها لا تستطيع الانتصار في محافظة الانبار العراقية، ومساحتها ثلث مساحة العراق تقريبا، ما لم تجند خمسين الف جندي اضافي للقتال في تلك المحافظة وحدها. وورد في الاخبار بعد ذلك ان الجيش الامريكي قد بدأ في الانسحاب من تلك المحافظة لانه لا يستطيع التغلب على المقاومة العراقية الباسلة هناك. وبهذا تكون المقاومة قد بدأت في تحرير العراق من الاحتلال وفي فرض الهزيمة على المحتلين.

* رئيس مجلس ادارة صندوق العون القانوني للفلسطينيين

العولمة الأمريكية وتحطيم الوعي

معقل زهور عدي*

■ ترافقت الحملة العسكرية على العراق والمنطقة العربية بحملة لا تقل شراسة لتحطيم وعي العربي بهويته، وتحطيم شعوره بالاعتزاز والكرامة، وتحطيم آماله وتطلعاته القومية، وحتى لا يكون الكلام مرسلا سأكتفي بواحدة من تلك الهجمات لتحطيم الوعي وهي الهجوم على الانتماء العربي القومي لسورية والذي تجلى بنشر وتسويق الأفكار الآتية:

1 ـ أن الفكر القومي هو مصدر الاستبداد، وهو الغطاء الايديولوجي له.

2 ـ أن الفكر القومي قد هزم بهزيمة حزيران (يونيو) 1967 وما تبقى منه هو بقايا جثة وليس جسما حيا.

3 ـ أن الفكر القومي قد زال من الوجود وأصبح في ذمة التاريخ بعد ان دخلنا عصر العولمة، فمكانه الطبيعي هو المتحف، والميل اليه يشبه الميل لزيارة القبور.

4 ـ لا وجود لشيء اسمه العروبة، فسورية وطن لأجناس متعددة وهكذا كان دائما، والقول بالعروبة يعني المصادرة على القوميات الأخرى.

لقد بلغ الهجوم السابق ذروته في سورية خلال السنوات الخمس السابقة، واختلط للأسف الشديد مع الدعوة للديمقراطية وحقوق الانسان وظهر يلبس ثوب الحداثة والليبرالية باعتباره آخر موضة للعصر.

ثمة فرق جوهري بين نقد الفكر القومي، ونقد الممارسات السياسية التي تمت تحت رايته وهو أمر مطلوب وملح، وبين العمل لتدمير أسس ذلك الفكر ومرتكزاته وصولا نحو تدمير مسألة الانتماء والهوية القومية العربية.

هل الفكر القومي مصدر الاستبداد؟

يحيل التأمل لمسألة الاستبداد لجملة من العناصر التاريخية ـ الاجتماعية ـ الثقافية ـ السياسية، فقبل انتشار الفكر القومي كتب عبد الرحمن الكواكبي كتابه «طبائع الاستبداد» وعينه على الاستبداد العثماني بينما كان يعبر بمناهضته للاستبداد عن بزوغ الفكر القومي العربي الذي يحلم بالديمقراطية.

فالاستبداد موجود قبل الفكر القومي، كما انه موجود خارج الفكر القومي بقدر ما هو موجود داخله، فهناك الاستبداد الناتج عن التعصب الديني (حكم الفقيه)، والاستبداد الذي أفرزته التجربة الاشتراكية السوفييتية بعد انتصار الستالينية، والاستبداد الذي تفرضه الرأسمالية حين تتهدد مصالحها كما حصل في تشيلي بعد انقلاب بينوشيه، والاستبداد المرتبط بطغيان المؤسسة العسكرية وتحكمها بالدولة..الخ.

من أجل ذلك فان احالة الاستبداد للفكر القومي هي احالة انتقائية واجتزائية، ولا ينقذ الاحالة من ذلك الاتهام الاشكالية الديمقراطية في تجربة الفكر القومي، فنقد الفكر القومي في مسألة افتقاره للبعد الديمقراطي شيء والقول انه هو سبب الاستبداد شيء آخر مختلف.

ينظر البعض الى ان تجربة الفكر القومي العربي هي تجربة عبد الناصر وحزب البعث بصورة رئيسية، أي ان الفكر القومي العربي قد وضع على المحك في تلك التجربتين وهزم مع هزيمة حزيران 1967.

نعم نحن هزمنا في حزيران 1967 هزيمة منكرة، لكن اذا كان الحديث يدور حول تجربة عبد الناصر بصورة خاصة فلماذا تذكر هزيمة حزيران وتنسى عملية اعادة بناء الجيش المصري وتعبئة المجتمع المصري بروح المقاومة وصولا نحو حرب 1973 التي قامت مصر فيها بانجاز عسكري باهر كاد يتحول لنصر كامل لولا التدخل الأمريكي والجسر الجوي الذي أقيم لنقل الدبابات لاسرائيل أثناء الحرب، وسوء الادارة السياسية للحرب؟

اذا كان انهزام الجيش المصري في حزيران 1967 تعبيرا عن هزيمة نظام وفكر، فلماذا لا يكون اعادة بناء ذلك الجيش خلال بضع سنوات وخوض حرب الاستنزاف مما أسس للانجاز العسكري الهام في 1973 تعبيرا عن حيوية وقدرة ذلك الفكر والنظام على الاستفادة من الهزيمة وتجاوزها ببنائه لجيش جديد أثبت فعاليته بطريقة لا تقبل التأويل.

لا يمكن القول ان هزيمة حزيران بنت لتجربة عبد الناصر وحرب تشرين الاول (اكتوبر) 1973 لا أب لها، ذلك يخالف المنطق البسيط.

اذن هناك تجربة ممتدة تتضمن انتصارات وهزائم، هناك نقاط مضيئة لا فائدة من التنكر لها، ونقاط مظلمة لا فائدة من تبريرها بل يجب البحث عن أسبابها أما القول بالفشل التام والتاريخي فينقضه انجاز حرب تشرين الاول (اكتوبر) 1973.

هل زال الفكر القومي من الوجود بدخول عصر العولمة؟

ما شهدناه في عملية تفكك الدولة السوفييتية هو استعادة النزعة القومية وليس اضمحلالها، وكذلك في تفكك يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلقان، الحقيقة ان ما يهم العولمة هو تفكيك الكيانات الكبيرة التي تشكل عائقا في وجه الهيمنة والتدخل الاقتصادي والسياسي، وحين تكون القومية عاملا مساعدا للتفكك فهي مرحب بها كما في حالة يوغوسلافيا، اما حين تكون القومية عامل توحيد لكيانات مستهدفة عندها تكون عدوا للعولمة، أما الناتج الموضوعي للعولمة المتضمن دمج الاقتصادات المحلية في نظام اقتصادي عالمي، ذي ملامح ثقافية مشتركة فهو أمر سيؤدي على المدى البعيد بدون شك لتذويب الفوارق القومية لصالح هوية عالمية انسانية قيد التشكل لكنها ما زالت بعيدة المنال.

المسألة التي تستحق التفكير الآن هل القومية العربية اليوم تسير في اتجاه التاريخ أم في الاتجاه المعاكس؟

هناك معطى بدهي ليس موضعا للنقاش أن ثمة هوية ثقافية ولغوية عربية مترسخة تمتد جذورها في التاريخ وفي شخصية الانسان العربي وروحه، هذه الهوية لم تصل الى غايتها التي وصلت اليها معظم امم الأرض وهي الوحدة السياسية.

في سعيها لتفكيك الدول القطرية تتيح العولمة بصورة موضوعية (على غير رغبة منها) الفرصة لاعادة النظر بالحدود القطرية التي كان ينظر اليها كشيء مقدس، ويمكن للشعوب العربية الاستفادة من هذا العمل التدميري بتوجيهه في الاتجاه المعاكس، لكن ذلك مرهون بقدرتها على كسر المرحلة الراهنة من هيمنة نظام العولمة (عسكرة العولمة)، فاذا تمت هزيمة أمريكا في العراق وتبعت ذلك صحوة شعبية بحيث تتم تصفية نتائج الحملة العسكرية السياسية، وحدث ما يشبه ذلك في لبنان وفلسطين فان الباب سيفتح لأول مرة على امكانات للتعبير عن الأهداف البعيدة للشعوب والتي تم قمعها بفعل قوى الاستبداد وقوى العولمة العسكرية، لا يعني ذلك بالضرورة انتهاء الصراع أو حسمه ولكن سينتقل الصراع الى مستويات مختلفة أقل قدرة على مقاومة ارادة الشعوب.

تتيح الديمقراطية الفرصة لهدم منظم للحدود بين الدول العربية، لكن ذلك الفعل لن يجري من تلقاء ذاته، من هنا تنبع ضرورة الفكر القومي، لكن عليه هذه المرة اخضاع حركته للأطر الديمقراطية، فالشعوب هي التي ستصنع التوحيد وليس القادة التاريخيون أمثال بسمارك.

هل لسورية هوية قومية عربية أم هي بلد متعدد القوميات؟

تذكر احصاءات الأمم المتحدة المعتمدة والمأخوذة عن مصادر مشتركة (وليس مصدرا واحدا) لعام 2005 أن نسبة العرب السوريين في سورية تبلغ 90,3 % من اجمالي السكان بينما تبلغ نسبة الأكراد والأرمن والشركس والتركمان وسائر المجموعات العرقية الأخرى مجتمعة 9,7 %، ووفق ما أعلمه فان قليلا من دول العالم تملك مثل ذلك التجانس القومي فتركيا مثلا لا تزيد نسبة القومية الرئيسية التركية فيها عن 65 % (يبلغ عدد الأكراد والعرب فقط في تركيا بين 20 ـ 25 مليونا من أصل 70 مليون نسمة)، وفي ايران تبلغ نسبة القومية الفارسية الى اجمالي السكان بين 55 ـ 60 % (هناك العرب والأكراد والبلوش والطاجيك وغيرهم)، وفي فرنسا اليوم حوالي 5 ملايين من اصول عربية مغربية ومشرقية وأفارقة مسلمين من غير العرب وذلك فقط يعني نسبة 10 % من عدد السكان، دون ان نتحدث عن العرقيات الأخرى كاليهود وغيرهم، وفي المانيا هناك سبعة ملايين مسلم عربي وتركي وافريقي عدا العرقيات الأخرى ويمكن سرد عشرات الأمثلة الأخرى. هي مهزلة اذن الحديث عن كون سورية دولة متعددة القوميات بمعنى الغاء الهوية القومية لها، لكن المأساة أن البعض أراد ان يصدق ويطبل ويزمر لفكرة عدم وجود هوية قومية لسورية ليقال عنه انه ليبرالي وعصري (على الموضة) وليكسب عطف بعض المجموعات الكردية.

ذلك لا يعني بحال من الأحوال انكار حق الأكراد في التمتع بالمساواة المواطنية التامة من جهة، وممارسة الحقوق الثقافية واللغوية بحرية ومساواة من جهة أخرى، لكن ان نتناسى بحرا من التاريخ العربي لسورية، وواقعا ديمغرافيا يفقأ العين مقارنة بكل دول العالم ونجعل من سورية دولة بدون هوية قومية من أجل نسبة لا تزيد عن 7 % من السكان ـ ويمكن ان تنخفض الى 4 % بملاحظة العرب الفلسطينيين في سورية والذين أصبحوا بحكم السوريين ـ فذلك أمر سخيف. هي ثقافة الهزيمة اذن ومن ورائها حملة العولمة الأمريكية لتحطيم الوعي واستبداله بوعي مزيف متهافت يفرض علينا الغاء عقولنا ليصبح بالامكان الغاء هويتنا وانتمائنا الواضح كالشمس.

لكن ذلك الجهد يبرهن كل يوم في العراق وجنوب لبنان وفلسطين مثلما سيبرهن في سورية أنه محض حراثة في بحر.

* كاتب من سورية

الاعتداءات على المسيحيين الفلسطينيين تخدم اسرائيل

حنان بكير*

■ ما عرف الفلسطيني الطائفية يوما. بل كانت قضيته التي استشعر بخطرها مبكرا اكبر من كل النزاعات الداخلية مهما كان لونها. لذا كانت مشاهد الاعتداء على الكنائس والمقدسات المسيحية اشد مرارة من مشاهد عمليات التدمير التي يمارسها الاحتلال الاسرائيلي لسبب بسيط، ان عدوان المحتلّ مبرر وطبيعي فهو احتلال، وهو في الحالة الفلسطينية احتلال استيطاني احلالي. لكن اعتداء الجماعات المسلحة على المقدسات المسيحية هو مؤشر خطير في سلوكيات غريبة عن الشعب الفلسطيني الذي ما عرف الا التوافق والوئام بين الديانات السماوية الثلاث. وكل الخشية ان تزرع بذور الطائفية البغيضة، سيما بعد تكرار مثل تلك الحوادث كما حصل في مدينة الناصرة.

خلط غير منصف

ان وضع المسيحيين العرب في سلة واحدة مع الغرب الاستعماري هو جناية كبرى وتعكس قصورا في معرفة تاريخ المسيحية في الشرق عامة وفي فلسطين خاصة التي هي مهد السيد المسيح والمسيحية، وان تبرير هذا الحقد بارتباط الذاكرة العربية بالحملات الصليبية غير الانسانية بكل المقاييس هو ايضا تجن آخر لان الحملات الصليبية في عدوانها لم تميز ايضا بين المسلم والمسيحي واليهودي.

اما بالنسبة لتصريحات البابا فيمكن الردّ عليها بتاريخ سلوكيات العنف والارهاب والحروب التي مورست باسم الدين وفي كافة الديانات بدون استثناء.

المسيحيون العرب والفتوحات الاسلامية

وعلى سبيل التذكير فقط لهؤلاء «المضللين» (بفتح اللام الاولى) نورد بعض الحوادث التاريخية، هذا فيما لو كانوا من الذين يقرؤون ويعون:

ـ ان الاضطهاد الذي لحق بالمسيحيين على يد البيزنطيين وعلى مدار ثلاثة قرون متتالية قبل الاسلام، كان السبب وراء انضمام المسيحيين العرب باجمعهم الى صفوف الجيوش العربية ايام الفتوحات الاسلامية.

وعندما وصل الفتح الاسلامي الى فلسطين وجنوب سورية حيث منازل الغساسنة، سأل الرومان الغساسنة المسيحيين، اتقاتلون مع ابناء دينكم ام مع ابناء عمكم؟ فقالوا: بل نقاتل مع ابناء عمومتنا. ويقال ان الروم ربطوا بعض الغساسنة بالجنازير، ووضعوهم دريئة امام جيشهم، وحين وصل الجيش العربي الى مقدمة الجيش الروماني، اندفعوا الى المقيدين وقطعوا سلاسلهم، والتفت هؤلاء الى الرومان يقاتلونهم وقد سميت تلك المعركة «بذات السلاسل».

ويرى المؤرخون لتاريخ المسيحية، ان معركة اليرموك الفاصلة بين العرب والروم لم تكن لتنتهي بانتصار العرب الحاسم لولا انضمام قرابة 12 الف مسيحي من فلسطين وبلاد الشام الى جانب خالد بن الوليد وابو عبيدة الجراح لاحقا. وان صلاح الدين الايوبي عندما شعر بدنو اجله عام 1193 امر بتوزيع الصدقات بعد وفاته على المسلمين والمسيحيين على حدّ سواء تقديرا لوقوف المسيحيين العرب الى جانبه.

من باع ارضا لليهود لا يصلى عليه ولا يدفن في المقابر المسيحية؟

لا بدّ من التذكير بان نضال الطائفة الارثوذكسية الفلسطينية للتحرر من سيطرة رجال الاكليروس اليوناني والمستمرة منذ عقود طويلة ما هي الا نتيجة تواطؤ الحكم العثماني للبلاد. فحتى سنة 1516 كانت رئاسة الطائفة وطنية عربية، وفي هذه الفترة وفد الى البلاد رهبان يونانيون استطاعوا بمساعدة السلطات العثمانية ان يوصلوا احدهم الى منصب «البطريرك» حيث عمل هذا على صبغ البطريركية بالصبغة اليونانية.

قد يكون نوعا من الانجرار الى مواقف هؤلاء المضللين لو حاولنا استعراض نضال الطائفة المسيحية في فلسطين قبل قيام الدولة العبرية لان نضال الشعب الفلسطيني لم يكن مجزءا وحسب الطوائف او المذاهب، ولكن تجدر الاشارة الى ان المؤتمر الارثوذكسي حيث الاغلبية المسيحية الفلسطينية اعلن ان «اي مسيحي يبيع ارضا او يتوسط لبيعها للصهيونيين، هو خائن لدينه ووطنه، لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسيحيين». جاء ذلك اثناء اشتداد حركة مقاومة بيع الاراضي الى اليهود منذ ثلاثينات القرن الماضي. وفي عام 1965 رفعت دائرة الشؤون الدينية المسيحية التابعة للهيئة العربية العليا لفلسطين باسم المسيحيين الفلسطينيين مذكرة الى البابا بشأن مشروع تبرئة اليهود من دم المسيح. جاء في المذكرة.

«ان المسيحيين العرب الفلسطينيين يأملون، ان قداسة البابا ورؤساء الكنيسة الكاثوليكية المجتمعين في المجمع المسكوني التاريخي العظيم، سوف يعلنون على العالم ان الكنيسة الكاثوليكية لا تقبل ولا تتسامح بشان الظلم الواقع على الاراضي المقدسة، وان المسيحيين العرب الفلسطينيين يناشدون البابا الامتناع عن اصدار تبرئة اليهود المقترحة، لان مثل هذه التبرئة ستقوي الحركة الصهيونية، وتضع في يدها سلاحا معنويا قويا للتمادي في برنامجها السياسي البغيض المعادي للسيد المسيح والمسيحية».

كيف اذا يمكن فهم تلك البيانات البدائية والهجمات الظالمة لمن يسمون انفسهم بـ«جيش الهدى» و«جيش سيف الحق»، البعيدة عن المنطق وعن الحس الوطني؟ فهل هو غباء وجهل الى هذا الحد ام هو تواطؤ مع الاحتلال الصهيوني عن قصد او غير قصد؟!

عندما بدأ الاحتلال الصهيوني بتدنيس وتخريب الاماكن المقدسة فانما بداها بالكنائس والمقدسات المسيحية ولا ننسى في منتصف الثمانينات من القرن الماضي كيف قام الاحتلال بتخريب اقدم دير تاريخي تابع للكنيسة الارثوذكسية في القدس وسرقة الايقونات التاريخية النادرة وتم اسكان مهاجرين يهودا جدد فيهم.

سؤال بديهي يتبادر الى الذهن: ما راي هؤلاء المضللين الذين يشاركون الاحتلال بتدمير مقدسات يسوع المسيح اول فدائي فلسطيني؟ وماذا يقولون عن الاب الكاثوليكي (ايلاريون كبوجي)، الذي خبر حياة شعبه بتنويعاتها المختلفة، فهو الراهب، والفدائي ناقل السلاح للفدائيين، واللاجئ المطرود من ارضه والسجين السابق في سجون الاحتلال؟ وماذا يقولون للاب عطا لله حنا الذي لاحقته سلطات الاحتلال فاعتقل وسجن، والذي التقى بشعبه في مخيمات اللجوء في جنوب لبنان مؤكدا قداسة حق عودتهم وان البشر اهم واقدس من الحجر.

وكذلك الاب منيب يونان الذي حمل آلام شعبه وصليبهم الى اوروبا وأجاد في مخا